أبو حامد العربي المشرفي الجزائري
وتراثه المخطوط بالمغرب الأقصى

الأستاذ محمد السعيد قاصري

جامعة المسيلة

المقدمـــة: لقد فضلت أن أبدأ مقالي هذا بما كتبه الدكتور أبو القاسم سعد الله عن هذا العالم الجليل الذي أنجبته جزائر القرن 19 "وجدير بالمشرفي أن ينشر ويقرأ الناس آراءه في معاصريه وفي أحداث وطنه وأحداث العالم الإسلامي والمغرب الأقصى التي عاشها وشارك فيها باندفاع وحماس، ولا نريد لتراثه أن يضيع وسط تردد الباحثين الذين اعتبروا المشرفي لا وطن له، فالجزائريون يجهلونه وقد يعتبرونه مغربيا بالهجرة، والمغاربة يجهلونه أيضا ويعتبرونه جزائريا بالأصالة. ويا ضيعة علماء العرب والمسلمين في عصر الوطنيات الضيقة والحدود السياسية الشائكة"[1].

وعليه سأسعى من خلال هذا المقال إلى الإجابة عن جملة من التساؤلات: من هو أبو حامد العربي المشرفي؟ ما هي مكانته العلمية في الجزائر قبل هجرته إلى المغرب الأقصى؟ ما هي ظروف هجرته إلى المغرب؟ ما هي مكانته بين علماء المغرب؟ وما هو موقفه من مختلف القضايا التي عرفها المغرب آنذاك؟ ما هو تراثه المخطوط بالمغرب؟ وإلى أي مدى يمكننا الاستفادة منه؟. وبذلك نكون قد حاولنا إنصاف هذا العالم الجليل ولو بالقليل، وأضفنا لبنة من لبنات البحث والتقصي عن حياته الشخصية بعد هجرته إلى المغرب.

1- أبو القاسم سعد الله، (مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر)، الثقافة، العدد 75، عدد خاص بالذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر، السنة 13، تصدر عن وزارة الثقافة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، رجب- شعبان 1403هـ/ ماي- جوان 1983م، ص. 77.

ولقد سمحت لي ظروف البحث بالمغرب الشقيق أثناء مقامي به في شهر جويلية 2006؛ بالوقوف على كم هائل من المصادر والمراجع المغربية التي تناولت شخصيته. وللإجابة عن تساؤلاتنا المطروحة سابقا، رأيت من الضرورة بمكان ترتيب عناصر المقال على النحو الآتي:

1-مولده ونسبه. 2 -نشأته. 3-هجرته إلى المغرب الأقصى. 4-محنة الاعتقال. 5-حجّه.

6- مكانة العربي المشرفي في المغرب بعد عودته من الحج. 7-مواقف المشرفي من بعض القضايا التي عرفتها كل من الجزائر والمغرب .8-وفاته. 9- تراثه المخطوط بالمغرب. **1مولده ونسبه:**

إن جلّ المصادر والمراجع[1] التي تناولت حياة أبي حامد العربي المشرفي لم تشر إلى تاريخ ميلاده

1- من بين المصادر والمراجع التي تناولت حياته نذكر:

- عادل نويهض، مُعجم أعلام الجزائر، ص. 303. - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج. 2، ص. 175-191. وفي مجلة الثقافة العدد 75، ص-ص. 75-86، وتاريخ الجزائر الثقافي، ج. 5، ج. 7، هذا الأخير الذي تحدث فيه مطولا عن حياة العربي المشرفي.

- خير الدين الزركلي، الأعلام، ج. 4، ص. 224. ومن بين الصادر المغربية التي أشارت إليه:

- المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ج. 9، ص. 27.

- ابن زيدان، النهضة العلمية، وهو عبارة عن مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 1265، ص. 40. ولنفس المؤلف أيضا: معجم طبقات المؤلفين، وهو أيضا مخطوط بنفس الخزانة تحت رقم 1265، ص. 403- السّليماني، اللسان المُعرّب عن ثقافت الأجنبي حول المغرب، ص. 33، أما من بين المراجع المغربية التي أشارت إليه: - ابن سودة، موسوعة أعلام المغرب، ج. 8، ص. 1313- الحسين الفرقان، من خلال تحقيقه لمخطوط أقوال المطاعين في الطعن والطواعين لأبي حامد العربي المشرفي، حيث خصص الجزء الأول من دراسته وتحقيقه لهذا المخطوط بالحديث عن حياة المشرفي، ولقد كان لي شرف اللقاء والتعرف على هذا الأستاذ الباحث بمدينة الرباط أثناء زيارتي العلمية لها خلال شهر جوان 1999، وشهر فيفري 2005، وكان له فضل كبير على شخصي في إفادتي بالمزيد من المعلومات القيّمة حول هذا العالم الجليل من خلال نسخ الجزء الأول من أطروحته التي نال بها شهادة الدكتوراه في التاريخ.

- الدراسة القيّمة التي أعدها ميشو بيلير:

Michaux-Bellaire: les musulmans d'Algérie au Maroc; Archives Marocaines, Volume XI, année 1907.

بشكل أو بآخر، بل تضاربت في بعض الأحيان عندما حاولت تحديد تاريخ ميلاده؛ فالعباس بن إبراهيم حاول تقييد تاريخ ميلاده في أواسط العشرة الرابعة من القرن 13هـ؛ بناء على أن تاريخ انتهاء المشرفي من تأليفه لكتاب الحُسام المشرفي يكون عمره قد ناهز 50 سنة[1]. ولكن الدراسة الأكاديمية التي أعدّها أحد الأساتذة الباحثين بالمغرب؛ من خلال تحقيقه لأحد مخطوطات العربي المشرفي، تكون قد قادته إلى تحديد تاريخ ولادته قبل هذا التاريخ بمدة تفوق 10 سنوات، كون المشرفي من أبرز تلامذة الشيخ أبي راس المعسكري المتوفى سنة 1238هـ/1821-1822م[2].

ولكن بالرجوع إلى ما كتبه المشرفي عن نفسه في طرس الأخبار[3] نستشف منه بعض المعلومات التي قد تساعدنا في ضبط تاريخ ولادته؛ فالمشرفي قد وصف لنا المعارك الأولى التي دارت بين الفرنسيين والجزائريين عقب الاحتلال الفرنسي للجزائر، كما عاش الأحداث التي عرفها الغرب الجزائري عقب التدخل المغربي في الغرب الجزائري الذي امتد من سنة 1830-1832، ويكون أيضا قد حضر التجمعات الأولى التي سبقت بيعة الأمير عبد القادر الخاصة والعامة...الخ، وحسب ما ذهب إليه الحسين الفرقان وبناء على أحد الشواهد وهي أنه في سنة 1830 يكون المشرفي قد انتقل من وهران إلى مسقط رأسه بمعسكر سنة 1245هـ/ 1830م؛

1- المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، ج. 9، ص. 27.

2- الحسين الفرقان، أقوال المطاعين في الطعن والطواعين للعربي المشرفي، تحقيق ودراسة، رسالة جامعية مخطوطة، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، شعبة التاريخ، جامعة محمد الخامس آكدال، تحت إشراف محمد الأمين البزاز، الرباط، 2003-2004.ص، 11.

3- طرس الأخبار بما جرى للمسلمين مع الكفار في عنتر(عتو) الحاج عبد القادر وأهل دائرة الفجار، مخطوط بمكتبة الحامة بالجزائر. وللإشارة فإن هذا المخطوط قد عدت إليه بهذه المكتبة في صيف 1999، أثناء تحضيري لرسالة الماجستير، ولكن للأسف الشديد عندما حاولت الرجوع إليه مرة أخرى سنة 2005، لم أجده بهذه المكتبة، ولحسن الحظ أنني توصلت بنسخة منه مصورة على شريط الميكروفيلم من محافظ الخزانة العامة بالرباط مقابل مخطوط مذكرات الأمير عبد القادر، وهو مسجل تحت رقم ك.496.

عقب دخول الفرنسيين مدينة الجزائر، ليتولى بها تدريس الصبيان؛ وبناء على هذه المؤشرات فالمرجح أن تكون ولادة المشرفي في مطلع العقد الأول من القرن 19م[1].

ولد المشرفي بقرية الكرط بضواحي مدينة معسكر[2]، ويعود نسبه إلى المشرفيين أو المشارف الذين يعود أصلهم إلى قرية بوسمعون بالجنوب الغربي الجزائري، وفي عهد بني زيان يكونوا قد نزحوا باتجاه منطقة غريس، أين استقروا وسط قبيلة الحشم وحظوا هناك بمكانة متميزة نظير نسبهم الإدريسي الشريف، وتمكنوا من حيازة الرياسة على سائر شرفاء المنطقة؛ وهذا ما جاء على لسان المشرفي نفسه في قوله: "ولذلك كانت النقابة فيهم لا تتعداهم ولا تخرج منهم وحصرها فيهم ملوك الأتراك"[3]. وبهذا النسب الشريف يكون الأشراف قد نالوا مكانة مرموقة لدى الأتراك الذين حكموا الجزائر، ولعله من أبرزهم الطاهر بن الشيخ عبد القادر المشرفي الذي تولى خطة القضاء والتدريس.

2–نشأته: لقد عاش المشرفي في جو كان يزخر بالعلم والأدب، فتعلم أبجديات القراءة والكتابة على يد والده عبد القادر المشرفي الذي كان عالما وفقيها بين قومه؛ ثم زاول تعليمه في سن مبكرة بزاوية الكرط بمسقط رأسه، وهنا يحدثنا المشرفي عن نفسه وعن شيوخه فيقول: "قرأت القرآن قبل أن أبلغ الحنب وأسياخي فيه سيدي محمد بن عبد الرحمان وسيدي عبد الله بن ديده والعربي بوروبة ومحمد بن عدلة، وعلي سيدي عبد الله بن ديده، قرأت أحكام القراءة

1- الحسين الفرقان، المرجع السابق، ص. 12.

2- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط. 2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، 1400هـ/ 1980م، ص. 303. إلا أن عبد السلام ابن سودة في مؤلفه موسوعة أعلام المغرب؛ ج. 8، ص. 1313، ذكره على أساس أنه من مواليد مدينة تلمسان.

3- العربي المشرفي، ياقوتة النسب الوهاجة، مخطوط بمكتبة الحامة بالجزائر تحت رقم 3326، ص. 45 وما بعدها؛ وللعلم أنه بحوزتي نسخة من هذا المخطوط في شكل قرص مضغوط تحصلت عليه في مطلع سنة 2006، من مكتبة الحامة بالجزائر العاصمة؛ كما توجد عدة نسخ من هذا المخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1534.

في الرسم والضبط والدرر اللوامع في مقر الإمام نافع"[1]. ثم يواصل حديثه عن هذه المرحلة المهمة من حياته: "ثم شرعت في قراءة الألفية بعد حفظ متنها بمدينة أم العسكر، فشيخي فيها ولي الله العلامة الطيب بن عبد الرحمان"[2]. كما ذكر لنا عددا هائلا من شيوخه الذين كان يكن لهم احتراما وتبجيلا كبيرين، مثل أحمد بن التهامي، ومحمد بن عبد الله سقّاط، الذي يصفه في أحد الأبيات الشعرية بقوله[3]:

وشيخنا عبد الله هو ابن عمنا / قرطاس العلوم الماهر المتفننا.

ومن مدينة معسكر شدّ رحاله نحو مدينة تلمسان لإتمام دراسته وتوسيع مداركه، وكان له بها لقاء مع العديد من شيوخ العلم والمعرفة وعلى رأسهم الفقيه الحاج الداودي التلمساني[4] قاضي تلمسان آنذاك، ثم انتقل بعدها إلى مدينة وهران سنة 1824 التي تعتبر بمثابة المحطة الأخيرة في دراسته، حيث درس على يد العديد من العلماء الذين من بينهم مصطفى بن التهامي ومحمد بن عبد الله سقّاط وغيرهم، ولقد دامت إقامته بوهران إلى سنة 1830

لقد كتب المشرفي عن مدة إقامته بمدينة وهران والعلوم التي حصلها في الخلاصة الموالية "ثم انتقلت لوهران لقراءة الفقهيات فبدأت مختصر خليل على الشيخ أحمد بن التهامي وعبد الله

1- الحسين، الفرقان، المرجع السابق، ص. 16.

2- العربي المشرفي، ياقوتة النسب الوهاجة، المصدر السابق، ص. 57.

3- الحسين، الفرقان، المرجع السابق، ص. 17.

4- هو أبو محمد الحاج الداودي التلمساني الفقيه والنحوي والمحدث، نشأ وتعلم في تلمسان، ثم هاجر في طلب العلم أو لأسباب أخرى إلى كل من فاس والقاهرة والحجاز، ثم رجع إلى تلمسان؛ فتولى القضاء بها أواخر العهد العثماني، ولقد كان من جملة المهاجرين الجزائريين الذي هاجروا إلى المغرب بعد سنة 1830، نحو مدينة فاس، وظل بها إلى أن وافته المنية سنة 1854، ومن أهم مؤلفاته شرح همزية البوصيري وشرح البردة كما وضع حاشية على شرح السعد في البلاغة، يراجع: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 7، ص- ص. 43-44، والكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من الصلحاء والعلماء بفاس، ج. 1، ص. 262.

سقّاط وخليل الرفندي، كان يعرف متشابهه كما يعرف متشابه القرآن، وأشياخي فيه أيضا ابن صابر المستغانمي وعبد القادر المستغانمي وقرأت على الثاني علم الكلام ومختصر الأخضري في المنطق ومختصر السنوسي، ومن أشياخي في مختصر خليل أيضا محمد بن عامر البرجي ومحمد بن يوسف العامري التراري، حضرت في قراءة التفسير على الحافظ الحجة بجامع الباشا في وهران للبيضاوي وحاشية عليه للخفاجي وحضرت في شرح البخاري على الفقيه محمد بن سعد التلمساني وذلك سنة 1245هـ"[1].

وعلى اثر نبأ الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر ثم احتلال مدينة وهران فيما بعد، هذه الظروف دفعت بالمشرفي إلى العودة من جديد إلى مسقط رأسه بمعسكر، وبهذا الخصوص يقول: "ففاجأنا خروج الإفرنس دمره الله للثغر الجزائري، فلم يتم لنا المراد في قراءة التفسير ومتون الصحاح، فرجعت لغريس ظافرا بالنحويات والفقهيات والحمد لله، وانتصبت في حياة والدي للتدريس وقرّت بي عينه"[2].

ونظرا لما تمخض عن الاحتلال الفرنسي للجزائر فإن هذا لم يثن من عزيمة المشرفي الذي ظل وفيا لرسالته النبيلة، ومن بين تحركاته بعد سنة 1830 هو زيارته لزاوية بحاجة سنة 1249هـ/ 1833م، وفي سنة 1265هـ يكون قد قام برحلة نحو الحجاز ومر بمصر واجتمع ببعض علمائها في مجالسهم العلمية وهو بذلك يقول: "اجتمعت بشيخ الإسلام فيها وهو الإمام البجوري سنة خمس وستين ومائتين وألف وحضرت مجلسه الدرسي في إقراء التفسير وتبركت به وحضرت مجالس فقهية لغيره"[3]. وإلى جانب هذا التحصيل العلمي الغزير يكون المشرفي قد ملك ملكة حب المطالعة والقراءة والكتابة، كما كان شغوفا بجمع كل ما يعثر عليه من كتب ومخطوطات، كوّن من خلالها نواة مكتبته التي ضمت ألاف الكتب، وهنا يشير أبو القاسم سعد الله؛ على

1- الحسين، الفرقان، المرجع السابق، ص. 18.

2- المرجع نفسه، ص. 19.

3- المرجع نفسه، ص. 20.

لسان المهدي البوعبدلي إلى أن المشرفي قد حمل معه أثناء هجرته إلى المغرب خزانة من الكتب أنقذها من الضياع، وهي متناثرة هنا وهناك في خزائن المغرب[1].

3-1- هجرته إلى المغرب: قبل أن نقف على حقيقة هذه الظروف من الأجدر بنا معرفة الظروف التي سبقت هجرته إلى المغرب، وما هو موقعه وموقفه من مجمل الأحداث التي عرفها الغرب الجزائري عموما ومدينة معسكر مسقط رأسه خصوصا؛ فمن الناحية السياسية نجد أن الباي حسن هو الممثل للداي حسين في مدينة وهران، وعلى اثر احتلال العاصمة الجزائرية أرسلت فرنسا بجيوشها لاحتلال مدينة وهران، وهو ما تم فعلا؛ ففي شهر أوت 1830 حلت به حامية فرنسية بقيادة أميدي -ابن بورمون- ولكن مقتله سرعان ما عجل بإرسال حامية عسكرية ثانية خلال شهر جانفي 1831؛ والتي تمكنت من احتلال المرسى الكبير وحصون مدينة وهران.

وفي هذه الأثناء فكّر أهل الحل والعقد بما يرونه مناسبا لهم فجاءت فكرة الاتصال بالسلطان المغربي عبد الرحمان ابن هشام قصد منحه بيعتهم والتحلل من البيعة التي في أعناقهم للباي حسن. فما كان من السلطان إلا أن قبل بيعتهم وأرسل مبعوثا عنه إلى المنطقة وهو المولى علي ليكون خليفة عنه في تلمسان، وأرسل مبعوثا آخر عنه وهو ابن الحامري -العامري- الذي كان مدعما من قبل كثير من التشكيلات الاجتماعية الجزائرية، الأمر الذي جعله يمكث بقواته في الغرب الجزائري إلى غاية سنة 1832، أين سحب السلطان ممثله واعترف للفرنسيين في وثيقة رسمية أن يلتزم الحياد تجاه ما يحدث في الجزائر. في ظل هذه الظروف تمت كما هو معروف مبايعة الأمير عبد القادر أميرا على الجهاد، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو ما هو موقع العربي المشرفي من هذه التطورات الخطيرة؟

لقد كان العربي المشرفي شاهد عيان ومشارك حقيقي في كل الأحداث التي عرفها الغرب الجزائري طيلة الفترة الممتدة من سنة 1830-1843، إلى جانب الأمير عبد القادر، وبهذا

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 5، ص. 387.

الخصوص يكتب عن نفسه في أحد كنانيشه: "وكنا نحضر معه -أي الأمير عبد القادر- في الجهاد وما فارقه مؤلفه في ثمانين وقعة وتقهقر العدو، ومهما فارق البحر بمائة خطوة أو بأكثر إلا وتخطفته الناس وغنمت سلاحه ورجاله من سنة خمسة وأربعين سنة في الماضي إلى تسعة وخمسين سنة"[1]. كما ترك لنا أبيات شعرية تختزل هذه المرحلة جاء فيها[2]:

من ثامن عام الأربعين في قرننا / إلى تاسع الخمسين والحرب دول.

ودِيننا في نصر وعز وهمـــــة / وديـــن الأتراك مخذول ومذلـــل.

وللإطلاع أكثر على ما كتبه المشرفي حول هذه المرحلة يجب العودة إلى ما جاء في طرس الأخبار الذي ضمنه معلومات قيمة عن مقاومة الأمير. ومن خلال هذا المخطوط يمكننا توضيح مواقفه من بعض التطورات التي عرفتها مقاومة الأمير عبد القادر، ومن بعض الأحداث التي رافقتها، ومن بين المسائل الشائكة التي أثارت كثير من الجدل نذكر:

3-2- موقفه من القبائل التي تخلت عن نصرة الأمير عبد القادر: نظرا لشدة وقع المقاومة، وللوحشية الفرنسية المسلطة على القبائل المناصرة للأمير، تثاقل بعضها وركن البعض الآخر إلى العدو الفرنسي، بل احتمت به لأن الأمير كان يُغير على هذا النوع من القبائل التي اعتبرها بمثابة معاول هدم داخلية إلى جانب العدو الفرنسي؛ فالمشرفي نجده ينصب نفسه في موقف المدافع عن هذه القبائل، لا بسبب موقفها من العدو الفرنسي؛ ولكن بدعوى بطش رؤساء جند الأمير واستغلالهم لنفوذهم فيما لا يخدم مصلحة الجهاد، وهنا نجده يفضل الإقامة بالبلاد والاحتماء بالفرنسيين أفضل من الهجرة خارج الوطن أو البقاء تحت راية دولة الأمير.

وبهذا الخصوص ننقل ما كتبه في هذه المسألة التي ستثير من دون شك كثير من الجدل "وطال عليهم الهم -يعني القبائل- وتردد الجفلات بالغم، فرت منه النصارى، واستحلت الجلوس تحت رايتهم، ليتوارى فلم يبق معهم إلا الحزب الملعون، يدور معه للنهب ويكون له

1- الحسين، الفرقان، المرجع السابق، ص. 26.

2- المرجع نفسه، ص. 26.

عون، فأقام معه على قتل العباد وسبي النساء والأولاد، وأباح الفروج لجيش العباد...وقال لهم هؤلاء المتنصرة ما لهم حلال؛ فبذلك وقعت المعايرة بالتنصر لمن لم يهجر نحوه ولمن لم يعمل مثله عمله حذوه"[1].

إن موقف المشرفي هذا له ما يبرره، وإن كنت لا أشاطره الرأي؛ فالأمير كما هو معروف كان وقافا عند حدود الشرع، واستفتى بذلك فقهاء وعلماء فاس في الأمر؛ في نص السؤال الذي ضمّنه هذه المسألة الشائكة وما جاء فيه هو: "وما الحكم فيمن يتخلف عن المدافعة إذا استنفر الإمام، أو نائبه الناس، للدفاع عن الدين والوطن، فهل يعاقبون على ذلك؟ وبأي شيء يكون عقابهم؟ ولا يتأتّى بغير قتالهم؟ وهل تؤخذ أموالهم وأسلابهم؟...الخ"[2]. وإذا كان جواب فقهاء فاس يصب في صالح حركة الجهاد وفي صف الأمير[3]، فإن هذا الأخير لم يكتف بذلك بل نجده قد وصف هؤلاء المتخلفين عنه والذين رضوا بالبقاء تحت ذمة الكفار، وصفهم بالكفرة وبالمرتدين، وهذا ملخص ما جاء في فتواه بهذا الشأن التي سماها بحسام الدين لقطع شبه المرتدين، وهو الشيء الذي عابه عنه كثير من علماء عصره، ومن بين هؤلاء محمد ابن الشاهد الجزائري[4]. والعربي المشرفي وغيرهم، وقد لا يسعني المقام في الحديث عن هذه المسألة، وعليه أكتفي بهذا وأكون قد وضّحت موقف المشرفي من بعض مسائل عصره آنذاك.

3-2- دوافع هجرة المشرفي إلى المغرب: لقد وضّح لنا المشرفي بما فيه الكفاية أسباب هجرته إلى المغرب، إلى جانب المئات من المهاجرين الجزائريين الذين ضاقت بهم السبل،

1- العربي المشرفي، طرس الأخبار، المصدر السابق، ص. 114.

2-محمد ابن عبد القادر، الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج. 1، ط. 2، شرح وتعليق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت، لبنان، 1384هـ/ 1964م، ص. 317.

3- بهذا الخصوص يراجع نص الجواب كاملا في تحفة الزائر ص-ص. 318-329.

4- محمد ابن عبد الكريم، حكم الهجرة من خلال ثلاث رسائل جزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص-ص. 107-124. فلقد تضمن هذا الكتاب الحديث عن هذه المسألة الشائكة بالكثير من الدراسة والتحليل.

وتكالبت عليهم المحن، وسأكتفي هنا بما كتبه عن هذه الدوافع في ما يلي: "اعلم أن النصارى لما اشتدت صولتهم وكثرت إذايتهم وعظمت شوكتهم وهالتنا غزواتهم وفجعتنا روعته، فررنا بالحريم للجبال، وتركنا وراءنا قوت العيال، وتحصنا بالأعراب المسلمين، وقلنا في زعمنا أسندنا ظهورنا لإخواننا المؤمنين فإذا بهم قاموا لأخذ مالنا وغاروا أخذا بثأر نهب عمالنا، فوقفنا حائرين حيث أخذنا بجريرة أهل الأمير الجائرين، ولا ألقينا للعدو سلاح إلا باجتماع الأعراب مع النصارى في الاصطلاح إذا الأعراب تغير علينا من أمام، ومن خلف تغير الكفرة اللئام، فالنهار حرب معهم ورحيل وعسات تحرس من الجميع في الليل، فإن مروا بموتانا مثلوا بهم وتبعوا جرحانا فادفنوا عليهم وهتكوا حرمة الحريم، من أجل ذلك ماتت الأحرار بالتخميم، فلا يشد المسلم عضد أخاه ولا يسد خلة جوعه بجوده وسخاه، لذلك رجع المستضعف للبلاد بعد أن مرت عليه المشاق وتكررت عليه الأنكاد، ووقع الجل منا أسيرا وصار الكافر على من رجع للبلاد أميرا فافترقت جموعنا أيادي سبأ، وتشتتنا جوفا وقبلة وشرق وغربا، ولما فقد عنا القمح والشعير ورجعنا لأكل لحم الغنم والبقر والبعير معشر الكبير والصغير، وبلغنا حد الجهد في الجوع لا سيما من ترضع الرضيع فيطبخ بلا ملح الطبيخ، حتى مات بأكل المسوس الكهل والشيخ، وترادف الرحيل في الفرار بلا إقامة بأرض هناك ولا قرار، وطال بنا الرجا وأعيانا مشي الوجا، فلا محتطب في طريقنا ولا مرعى لسائمة ماشية ترعى، إلا الشيح في بعض الأودية والخلفا، فلا تراها إلا يابسين من جايحة الحر والقر والأصفا، نيرانها باردة لا تنضج نيا فلم تحصل لنا بها فائدة، فترى الناس يتداولون طول الليل على إيقادها فلم ينتج لهم الأمر إلى أن رجعوا لغلي القديد فلم يكملها في إيرادها، عند ذلك هاجت بطون القوم، ومات الجل بها في النوم، وما سلكنا فجا من فجاج تلك الأرض إلا امتلأت أفواهنا بالتراب طولا وعرضا، والعدو في أثرنا طالبا منا حرب الكفاح، فنصرته علينا والله عواصف الرياح، وضاقت علينا الأرض بما رحبت، ومن قلة الماء والعيش فما وسعت، وكنا رحلنا في هروبنا السنة الأولى رحلة بعد رحلة

حتى كملت لنا ستين جفلة، وفي السنة الثانية ثمانين رحلة قاصية، إلى أن أتت على أخرنا السنة الثالثة، فاحترق ريشنا في المائة الرحلة الكارثة"[1].

ففي ظل هذه الظروف الحالكة هاجر المشرفي نحو المغرب في حدود شهر جمادى الثانية 1260هـ الموافق لشهر جوان 1843م، أي بعدما تمكن الجيش الفرنسي من الاستيلاء على زمالة الأمير عبد القادر في عين طاكين، بوشاية من طرف أحد الجزائريين وهو عمر بن فراث. لقد كان إلى جانب المشرفي في هجرته وفد كبير ضم عددا هائلا من أعيان منطقة غريس، وعلى رأسهم محمد السعيد شقيق الأمير عبد القادر، ومحمد بن عبد الله سقّاط؛ والعديد من أقارب الأمير[2]، ومن الأشراف أنفسهم؛ ونظرا لرفض والد زوجة المشرفي الذهاب معه قام بتطليقها واكتفى بأخذ أبنائه معه؛ فكانت وجهتم قرية بوسمعون التي حطوا بها رحالهم، ثم واصلوا مسيرهم باتجاه أحد زعماء أولاد سيدي الشيخ الغرابة الشيخ ابن الطيب؛ ويقول المشرفي في ذلك أبياتا من الشعر جاء فيها[3]:

توجهت لابن الطيب الشيخ عصبة جهـابذة فـروا بدينهـم أول
فمنهم أديب القوم وابن رئيسهـم مولاي السعيـد الأسعد المتأصل
وشيخنا عبد اللـه هو ابن عمنـا قرطاس العـلوم العـالم المتفضل.

لقد لاقوا عنتا كبيرا وتبرما من شيخ هذه القبيلة الذي طلب منهم تسديد مبلغا من المال؛ وإلا سيتعرضون لنهب وسلب متاعهم، لأنهم كانوا يحملون معهم كل ممتلكاتهم الثمينة، فقبلوا بذلك ورافقتهم محلة لحراستهم حتى وصلوا مشارف مدينة وجدة[4]؛ ومنها يكون عبد الله

1- العربي المشرفي، طرس الأخبار، المصدر السابق، ص-ص. 135-237.

2 -Michaux-Bellaire: les musulmans d'algérie au maroc; Archives Marocaines, Volume XI, année1907, p-p 45-46.

3- الحسين، الفرقان، المرجع السابق، ص. 34.

4 - Michaux-Bellaire: les musulmans d'algérie au maroc, op-cit, p,45.

السقّاط قد كتب إلى السلطان عبد الرحمان يستجديه ويطلب مساعدته، فأرسل لهم السلطان بقافلة من الدواب والخيول لحمل أمتعتهم ومائة فارس لحمايتهم ومرافقتهم إلى مدينة فاس[1].

4- محنة الاعتقال: إن ظروف وملابسات اعتقال العربي المشرفي من طرف المخزن المغربي ما زال يشوبها نوع من الغموض، على غرار كثير من المسائل التاريخية التي ما زالت عالقة؛ حيث لاقا كثير من العلماء على مر التاريخ حتفهم نتيجة لظروف سياسية وتقلبات في الأمزجة لدى السلاطين والأمراء؛ وعليه فإن العربي المشرفي يكون قد ذهب ضحية للأحداث المدلهمة التي كانت تدور رحاها بين الأمير عبد القادر والسلطان المغربي في الأشهر الأخيرة من سنة 1847[2].

إن العربي المشرفي يكون قد حرر حسب "فيليب دي كوسي بريساك"[3] رسالة إلى الأمير عبد القادر ضمنها ضرورة الالتقاء به في القعدة الحمراء[4] إلى جانب قبيلتي الحشم وبني عامر، عندما تغلب على محلة ولي العهد سيدي محمد التي أرسلها السلطان لمحاربة الأمير؛ والوقوف إلى جانبه في وجه السلطان المغربي؛ وتذكر أحد الكتابات الفرنسية أن السلطان يكون قد اطلع على محتواها؛ فزاد حنقه على كاتبها؛ بل أصدر أوامره بإلقاء القبض على صاحبها؛ وأراد السلطان أن يقطع رأسه، إلا أنه عفا عنه برميه في غياهب السجن[5]. ومن دون شك أن قائد مدينة فاس سي علال الشامي كان له دور كبير في إنقاذه من الهلاك، وعليه فلقد تم إلقاء العربي المشرفي في السجن من دون روية تذكر، وأعتقد هنا أن السلطان كان واقعا تحت هول الصدمة

---

1 -ibid, p, 45.

2- للإطلاع أكثر على هذا الموضوع الذي ما زال يثير كثيرا من الالتباس والغموض، يراجع ما جاء في أطروحتي الموسومة بالعلاقات الجزائرية المغربية في عهد الأمير عبد القادر 1832-1847. في الفصل السادس، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

3 - Ph, De Cossé Brissac: la France et le Maroc pendent la conquête d'Algérie, Hespéris, Tom, XIII, 1931, fasc, 1, p, 209.

4 - Michaux-Bellaire: op-cit, p, 59.

5 - Michaux-Bellaire: op-cit, p, 59.

والفاجعة التي حلت به من جراء مقتل القائد الأحمر على يد جيش الأمير؛ وانهزام جيش ولي عهده أمامه أيضا، إلى جانب الضغوطات الفرنسية المسلطة عليه.

لقد ظل العربي المشرفي سجينا و لم تشفع له توسلاته لدى السلطان عبد الرحمان في إطلاق سراحه؛ ومحاولاته في نفي التهمة التي سجن بسببها؛ بل أنكرها تماما ورآها مجرد تصفية حسابات لا غير، ورأى أفراد عائلة بن الشيخ المشرفي أن هذه الرسالة كانت مزورة[1]. إلا أن السلطان عبد الرحمان لم يول له أدنى اهتمام؛ وكلف بذلك ولي عهده سيدي محمد بالنظر في ملف العربي المشرفي، ويذكر"ميشو بيلير" أن المشرفي ظل سجينا حتى وفاة السلطان عبد الرحمان سنة 1859، إلا أن هناك شواهد تفند هذا الطرح منها أن المشرفي يكون قد حج في سنة 1848، فلقد أكثر المشرفي في كتابة العديد من القصائد الشعرية لسيدي محمد يستجديه فيها ويستعطفه؛ ومن بين ما جاء في أحدها[2]:

سُجنت بظلم وهو مطلع على ... سريره عبد فيما يأتي ومـــا مـــضى

رماني عدوي بالذي فيه عيرة ... وحـــق بأن يرمـــى بـــه فتغلـــظا

لقد أصر المشرفي على أنه كان ضحية وشاية الميلود بن عراش، فهجاه بقصيدة سماها ذم أكبر الوشاة الغشاش المولود بن عراش، تتكون من 23 بيتا، حيث نعته فيها بأقبح الصفات، ومن ما جاء فيها[3]:

لكـــن أصلك إسرائيلي تبغضنـــا ... يا ملعون الأصل من أفاك غشاش

يكفيك سجننا فأكثر شرب ماحية ... ويوم سبكتـــم فأحسن الفـــراش

فـــــلا أساقفـــة الملاح تبغضـــنا ... كبغض هذا الذي يدعى ابن عراش

وما ولاك ابن ماحي الدين في ثغر ... حتى جفـــا ربـــه جفـــاء نبـــاش

---

1 - Michaux-Bellaire: op-cit, p, 59.

2- الحسين، الفرقان، المرجع السابق، ص. 40.

3- الحسين، الفرقان، المرجع السابق، ص-ص. 40-41.

لقد ذاق المشرفي مرارة السجن ومما زاد في حنقه مرارة الغربة ووقع الرحيل عن الديار، ولقد وصف لنا المشرفي هذه المرارة وحالته في السجن الذي لم يكن بسجن، في قصيدة شعرية جاء فيها[1]:

فساقية تجري من البول وحـــده وسائلة بين المساجين في الفضـــا
ورائحـــة الأقذار منها تشمهـــا وقد أحرقـــت منا الخياشيم تمرضا
وزد هيج الأمراض ووطأ مزابـــل ومنهـــا تولد الوبـــاء وتفرضـــا
فهذا مطعون في الفؤاد وخصره بسيف القضا ومقدور الله ما مضا

ونظرا لهذه الحالة المزرية فهي لم تثنه عن مواصلة الكتابة لولي العهد سيدي محمد يستعطفه ويوضح له فساد نية خصومه، وأنه من الأوفياء للمخزن المغربي، ومن بين ما كتبه في هذا الشأن[2]:

أيسجن من يباهي بكم عدوا يفاخره ويمدحكـــم لســـان
أيسجن من يعظم القدر منكم وأطلق في عداتـــكم اللســـان
وقابل بيننـــا سيدي جميعـــا فليس في الصدق كالخبر العيان

ولكن مع نهاية مقاومة الأمير عبد القادر وتسليمه بالأمر الواقع للفرنسيين واطمئنان المخزن المغربي واستبشاره بذلك[3]، بدأت تلوح في الأفق بوادر الإفراج عن كثير من المعتقلين السياسيين من قبائل الحشم وبني عامر، ولقد كان من بين المفرج عنهم العربي المشرفي، وإذا كنا لا نتوفر على تاريخ إطلاق سراحه بالضبط، فمن دون شك أن يكون إطلاق سراحه خلال هذه الفترة، إلا أن "ميشو بيلير" له رأي آخر في المسألة، وهو أن العربي المشرفي ظل سجينا حتى وفاة

1- المرجع نفسه، ص. 42.

2- المرجع نفسه، ص. 43.

3 -Hamet, Ismaïl :Le gouvernement Marocaine et la conquête d'alger, présente, Ali Tablit, Thala éditions, les éditions Chihab, Alger, 1998, p-p 117-119.

السلطان عبد الرحمان سنة 1859[1]. وأن هذه القصائد كانت كلها موجهة لولي عهده وليس للسلطان، ويواصل "بيلير" أنه بعد إطلاق سراحه يكون قد تزوج من أخت الحاج محمد المشرفي الذي كان قد ولاّه المخزن المغربي منصب قاضي الحياينة[2]، إلا أن ما جاء في أطروحة الحسين الفرقان الذي حقق أحد مخطوطات المشرفي[3] يكون قد رجّح تاريخ إطلاق سراحه سنة 1848 على أقل تقدير، وهو رأي نحترمه وقد نشاطره بناء على أن المشرفي يكون قد زار الجزائر في حدود سنتي 1849/1848[4]، كما ذهب لأداء مناسك الحج في سنة 1849، هذا إلى أن تطالعنا وثائق تاريخية تنفي أو تثبت هذا الرأي أو ذاك.

5- حجّه: بعد إطلاق سراحه يكون المشرفي قد شملته الظهائر الرحمانية والصّلات التي كان يسديها السلطان عبد الرحمان للمهاجرين الجزائريين، وإذا كان جلهم فضّل الاستقرار بالمغرب فإن البعض منهم طلب من السلطان الإذن لهم بالحج والتبرع عليهم بالهبات والأُعطيات لمواجهة مشقة السفر، فكان السلطان -حسب الوثائق الملكية المطلع عليها- سخيا في حق هؤلاء الجزائريين الذين تطول بنا القائمة لذكرهم، وحتى لا نخرج عن موضوع المشرفي يمكن القول أن هذا الأخير قد توسط له قاضي مكناس السيد العباس بن كيران لدى السلطان، في شأن إعانته على السفر لأداء مناسك الحج.

فما كان من السلطان إلى أن منحه قدرا كبيرا من المال، وسمح له بالإبحار مجانا مع جملة الحجاج المغاربة الذين سيؤدون مناسك الحج في سنة 1849. وبعد أداء هذه الفريضة يكون المشرفي رجع من جديد إلى المغرب ولم يعد إلى الجزائر، وبعد أن استقر به المقام للمرة الثانية بهذا البلد، بدأ في البحث عن كيفية التأقلم مع المجتمع المغربي، وبدأ بالبحث عن الصيغة والوسيلة التي يمكنه أن يدبر بها عيشه هناك، مع مراعاة لمكانته كعالم مهاجر، فهل تمكن من

---

1 - Michaux-Bellaire: op-cit, p, 59

2 - Michaux-Bellaire: op-cit, p, 59

3- أقوال المطاعين في الطعن والطواعين.

4- أبو القاسم سعد الله، (مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر) ، المرجع السابق، ص. 76.

النفوذ في البلاط المغربي؟ ...الخ؟ وهل بقي مكتوف الأيدي أمام الأخطار التي كانت تهدد المغرب؟ وما موقع العالم المشرفي بين النخبة المغربية المثقفة آنذاك كالحجوي وابن زيدان؟ هذه جملة من التساؤلات سنجيب عنها في العناصر الموالية.

6- مكانة العربي المشرفي في المغرب بعد عودته من الحج: لم يحض العربي المشرفي كغيره من الأشراف بمزيد من الاهتمام والتوقير لدى المخزن المغربي، ربما نظير الخلفية التاريخية السابقة، حيث تم تعيينه في منصب من الدرجة الثانية أقل من شأنه وهو منصب تدريس الصبيان[1]، عكس الجزائريين الذين عُينوا كمدرسين من الدرجة الأولى في جامع القرويين وغيره؛ وبالتالي فإن هذا المنصب لم يكن ليستجيب لمستواه وطموحاته، فها هو يعبر عن امتعاضه في أحد قصائده الشعرية التي جاء فيها[2]:

وكنا أهل ثروة في القـــوم ولنا شأنا عاليا في السوم
لنـــا أصـــول وعقـــــار ولنا جـــاه زانـــه وقـــار
وهجرنا العقار والوقـــارا وتركنا الحائط والجـــدارا
وفررنا بالدين نحو المسلمين ونبذنا السكنى من بر المجرمين
وجئنا واستوطنا أرض فاس حمدنـــا اللـــه بـــلا قيـــاس...
فمرحبا بالفقر فخر الأنبيـــا ولكن ضرنا لسان الأغبيـــا

لم يكتف العربي المشرفي بما قسمه له المخزن المغربي، ولذلك نجده يخرج من مدينة فاس إلى إحدى ضواحيها عند قبائل سلاس وأولاد جامع وأشراكه، طلبا للرزق؛ وبهذا الشأن يقول في قصيدة مطولة له ما يلي:

فقلت إنـــي محتـــاج لـــزرع وأهـــل خير هـــم أهـــل ضرع
فسرت نحوهم وخففت الخطا مسترزقا أقـــرع أبواب العطـــا

1- العربي المشرفي، طرس الأخبار، المصدر السابق، ص. 143.

2- الحسين، الفرقان، المرجع السابق، ص. 49.

ما بين رائـــح منهـــم وغادي فقلـــت نلك حالـــة البـــوادي
تمـــر دونـــي وبي لا تبـــالي وأمـــواج الهمـــوم كالجبـــال

ويبدو أنه لم ينال مراده بعد قضاء هذه الليلة طلبا في جمع بعض الحبوب، فلم يبال به أحد من القوم، وهنا يواصل الحديث عن هذا الموقف المتبرم في ما يلي[1]:

فقلت لا حول ولا قوة لي قد خاب ظني وخسرت عملي
نظرت حولهم قريبا لاح لي مدشر خيـــم فسرت قلـــبي
لعلي آت من يسد جوعي وخـــيرا منهـــم نجد لبغيـــتي
فما لقيت إلا من هو أشر منهم ولا وجدت من هو أبـــر
لكنهم في البخل هم أصناف فمنهـــم من له فيه إســـراف

لقد خاب أمل المشرفي في هذه القبائل التي لم تنصره وتقدم له يد العون والمساعدة، وهو موقف له ما يبرره؛ فهل هو الخوف من عيون السلطان التي كانت ترصد تحركات المشرفي؟ أم نتيجة لظروف العوز الذي كانت تمر بها هذه القبائل وغيرها؟ وعلى اثر ذلك رجع من جديد إلى مدينة فاس أين وجد عائلته تعاني من ضيق شديد في المعيشة، وأثقلت كاهلها الديون التي لم تجد أسرته بُدا من رهن بعض كتبه مقابل ما تسد به رمقها. ولقد دوّن المشرفي حالة عائلته المزرية في الأبيات الشعرية الآتية[2]:

رجعت خائبا صفر اليديـــن لأهلـــي صرت مملوءا بالديـــن
ألفيتهم قد رهنوا التصريحـــا وديوان الصفـــر والتوضيحـــا
وفي الدقيق رهنوا الموطـــى لما رأوا نجـــلي قـــد توطـــى
بالجوع لأنـــه صغير الســـن وجـــاع كل قـــوي مســـن
وأم عيالي تقـــول للجميـــع سيأتي ربُّ البيت بالقوت المريع

1- الحسين، الفرقان، المرجع السابق، ص. 50.

2- الحسين، الفرقان، المرجع السابق، ص. 51.

لقد نجح المشرفي بعد مرور فترة من الزمن قضاها في وظيفته السابقة، في الحصول على ظهير سلطاني بشأنه أصدره السلطان سيدي محمد، يتضمن نقل المشرفي إلى التدريس في مدينة القصر الكبير التي قضى بها مدة سنتين، إلا أنه لم يتحصل على المنصب الذي طلبه وهو مدرس نظارة مكناس، وإلى جانب هذه المهنة اعتمد المشرفي على سواعده وبدأ في نسخ الكتب نظرا لملكة الخط والكتابة التي كان يتمتع بها، والسرعة الفائقة في نسخ الكتب؛ لدرجة أنه كان ينسخ الكتاب الواحد بين العشاءين، ومن بين الخزائن التي نسخها خزانة عبد العزيز الغرديسي، ولقد خص هذا الأخير المشرفي بالمزيد من الهبات والعطايا فظلا عن أجرة النسخ، كما نسخ كناشة لفائدة الوزير عبد الله بن أحمد، المعروفة بقصة اليهود المهاجرين المعروفين بالبلديين بفاس. ...الخ[1].

لم يكن المشرفي بمعزل عن الأحداث التي كان يمر بها المغرب، فكانت كلما تقع واقعة إلا ويُعبر عنها بشعره، الذي يضمنه موقفه منها، فنجدها كان من بين أول المنبهين لمخاطر الحماية الفرنسية على المغرب، كما نجده قد استشاط غضبا وألف قصيدة في رثاء مدينة تطوان عندما احتلها الإسبان سنة 1859، وبذلك بدأت الأعين تحوم حوله، والناس تتحدث عنه في مجالسها وتقرأ له في أشعاره، وهو المدرس والعالم والنّساخة والكاتب والشاعر، ولقد كان هو يطمح لأن يُعيد الاعتبار لنفسه ولعائلته التي نكّلت بها الأحداث، فلم يترك كل شاردة وواردة إلا أدلى بدلوه فيها، وبدأ في كتابة شعر المدح لسلاطين الدولة ووزرائها وأعيانها، وهو ما جعله يتقرب أكثر من بلاط السلطان، وهذا ما تم له فعلا.

ومنذ ذلك الحين دأب المشرفي على تنظيم قصائد المدح للسلاطين في جل المناسبات والتحركات التي يقومون بها، في سبيل الحصول على مكافئات وصلات مادية كانت أو معنوية، يستعين بها على مكابدة مشاق العيش له ولعائلته، فقد رافق رحلة السلطان سيدي محمد أثناء خروجه من فاس إلى مراكش سنة 1289هـ/ 1873م، كما تمكن من تبوأ مكانة مرموقة وسط

1- الحسين، الفرقان، المرجع السابق، ص. 54.

زمرة الكتاب والشعراء في عهد السلطان الحسن الأول؛ ومن بين ما كتبه في ذلك تهنئته لهذا السلطان ببيعته، وبخروجه لتأديب حركة قبائل حوض إيناون الثائرة عليه في سنة 1293هـ/ 1876م؛ وقضائه على تمرد غياثة، ثم حركته إلى وجدة سنة 1294هـ/ 1877م، لتهدئة الفوضى التي انتشرت بالمنطقة الشرقية تحت إشراف محمد بن البشير بن مسعود اليزناسي[1].

وللعلم فإن المشرفي يكون قد زار الجزائر في هذه السنة وهي الزيارة الثانية له بعد التي قام بها كما سبق وأشرنا. وهنا قد أسجل نوعا من التضارب في المعلومات حول تاريخ حجّه الذي يقول عنه أبو القاسم سعد الله أنه كان خلال هذه السنة[2]، بينما الحسين الفرقان يؤرخ له بسنة 1849[3]. نقلا عن ما كتبه المشرفي عن نفسه في أقوال المطاعين في الطعن والطواعين؟[4]

وعلى اثر ذلك يكون المخزن المغربي قد اطمأن إليه فكلّفه ببعض المهام الرسمية للتعبير عن مواقف المخزن؛ وشرح قراراته لبعض المعارضين له من المغاربة أنفسهم، وكان مما كتبه في هذا الشأن مشموم عرار نجد سنة 1292هـ/ 1875م حيث شرح فيه مضمون الرسالة التي كتبها السلطان الحسن إلى أعيان وشرفاء زرهون ووبخهم فيها على شكواهم من باشا مدينة فاس، ونظرا لهذا الدور الذي لعبه المشرفي لصالح المخزن فقد خصّه السلطان الحسن بصلات متنوعة، والتي من بينها تكفله بتزويج ابنه الأوسط وكسوة عياله مكافأة له على قصيدة مطولة تتكون من 125 بيتا، كما كافأه على إحدى القصائد الأخرى المؤرخة في سنة 1883 بمقدار 30 ريالا.

1- الحسين الفرقان، المرجع السابق، ص-ص. 56-57.

2- أبو القاسم سعد الله، (مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر) ، المرجع السابق، ص 76.

3- الحسين الفرقان، المرجع السابق، ص. 44

4- العربي المشرفي، أقوال المطاعين في الطعن والطواعين، مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط، تحت رقم 2054، ص-ص. 44أ-46ب، حيث يذكر في مؤلفه هذا أنه انطلق في رحلته البحرية من مدينة طنجة إلى مدينة الإسكندرية خلال شهر رمضان من سنة 1265هـ/ 1849م.؟!.

ولم يكتف السلطان بذلك بل نوّه به وبإبداعاته في الخطاب الذي أرسله السلطان سنة 1887 إلى المهاجرين الجزائريين –التلمسانيين– بفاس[1].

وقد بلغ بالمشرفي من الحظوة بمكان، أنه أصبح من مرافقي السلطان الحسن في العديد من جولاته داخل البلاد عندما كان السلطان يطلب من العلماء السير في موكبه، وعليه فالمشرفي كان من فئة العلماء المقرّبين، ولعل ما يزكيه بالإضافة إلى الولاء السياسي والتأليف أنه كان من الأشراف، ومن مبادئ الأسرة العلوية إحاطة الأشراف بعطفها[2].

7– مواقف المشرفي من بعض القضايا التي عرفتها كل من الجزائر والمغرب: قد لا يسعنا المقام في تتبع كل مواقف العربي المشرفي من مجمل القضايا المصيرية التي عرفها مغرب القرن 19 م، ولذلك سأقتصر على ذكر بعض المواقف حسب تسلسلها الزمني في ما يلي:

7-1– موقفه من الاستعمار الفرنسي: لقد كان موقف المشرفي واضحا منذ البداية من الفرنسيين، كيف لا وهم الذين كانوا وراء هجرته من بلاده وحرمانه من العيش فيها بأمان وسلام، ويتجلى لنا موقفه من خلال مخطوطه طرس الأخبار، حيث وصف الفرنسيين بأوصاف قبّحهم فيها بل لعنهم وشتمهم، خاصة وأنه شاهد عيان للمجازر التي ارتكبوها في حق الجزائريين، ومن جهة أخرى فإنه اعترف لهم بتفوقهم العسكري، وأنه لولا هذا التفوق لما انتصروا على الجزائريين؛ ولم يكتف بذلك بل نجده يتربص بهم الدوائر ويتشمت بهم عقب كل هزيمة تحدث لهم سواء في الجزائر أو خارجها، كما حدث لهم أثناء هزيمتهم أمام بروسيا سنة 1870، وعلى اثر ذلك راح يُحرض السلطان الحسن بضرورة أخذ الأُهبة والاستعداد لهم وعدم أمن مكرهم وشرهم.

إن هذا الموقف لم يحافظ عليه المشرفي وهو موجود بالمغرب؛ فعلى اثر زيارته الثانية للجزائر سنة 1877، نجده يُمجّد الفرنسيين ويقر لهم بمستوى التقدم والرقي الذي وصلت إليه الجزائر،

1– الحسين الفرقان، المرجع السابق، ص–ص. 57–58.

2– أبو القاسم سعد الله، (مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر) ، المرجع السابق، ص. 76.

عكس تماما ما كان حاصلا. فالجزائر في هذا الوقت قد بلغت قمة التردي والتدهور في مختلف المجالات، وهو العهد الأكثر ظلما وظلاما في تاريخ الاحتلال[1]، وهنا يتساءل أبو القاسم سعد الله كما نتساءل معه فيقول: هل أن الفرنسيين قد هيئوا له الظروف الملائمة وأثّروا بوسائلهم ورجالهم ليكتب ما كتب عنهم؛ وليؤثروا من خلال ذلك على الوضع في المغرب لاسيما وقد كان المشرفي مُقربا من السلطان وحاشيته؟ أو نقول: إن المشرفي نفسه كان متأثرا بأوضاع المغرب المتخلفة وعندما رأى ما في الجزائر أخذا الجانب البراق، وكتب عنه ليتعظ به أهل المغرب من الأعيان والمخزن؟ إن كلا الاحتمالين ممكن، ولكن الأكيد هو أن الصورة التي نقلها المشرفي عندئذ كانت غير صادقة عن الاحتلال[2].

7-2- موقفه من حركة الإصلاح التي كان يشهدها المغرب: يمكننا تتبع مواقفه فيها في ما يلي:

7-2-1- الإمارة والسلطان: يرى المشرفي أن طاعة ولي الأمر واجبة وجوب كفاية، ومن بين الصفات التي رآها كفيلة بنجاح الأمير أو السلطان في تدبير شؤون دولته: الشجاعة والإقدام والعفة والحلم وكظم الغيظ، والعفو والرفق، والوفاء بالوعود والعهد والصدق، والحزم في تسيير أمور الرعية، والدهاء والتواضع وسلامة الصدر من الحقد والحسد، والصبر أمام الشدائد، والسخاء والعدل، والاستعانة في المُلك بالأعوان من وزراء ووُلاة وعُمال من ذوي الخبرة والنجابة للرأي والمشورة ومباشرة الحرب...الخ[3].

7-2-2- الوزارة: يتم اختيارهم كما هو معروف وفق نظر الملوك والأمراء، ولقد اعتبر المشرفي أن صلاحهم يرتكز على النصيحة الحسنة للمَلِك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاعتدال والشجاعة، لأن صلاح السلطان وفساده لازم عن صلاح الوزير وفساده، وكما أن

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 7، ص. 405.

2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 7، ص. 405

3- الحسين الفرقان، المرجع السابق، ص. 109.

السلطان إذا صلح صلحت الرعية وإذا فسد فسدت الرعية، فكذلك الوزير إذا صلح صلح الملك وإذا فسد فسد الملك. و لم يكتف بذلك بل اشترط في ضرورة تعيين الكتاب من نخبة أبناء المجتمع، وأن يكونوا من أرفع الطبقات، وأهل المروءة والحشمة، وزيادة العلم وعارضة البلاغة، كما نبّه إلى وظيفة رآها ضرورية للمُلك وهي ديوان العمل والجبايات[1].

7-2-3-الجهاد: لقد دافع العربي المشرفي عن رأيه في الجهاد بضرورة أخذ الأُهبة والاستعداد الجيد له، مع ضرورة الوقوف إلى جانب السلطان في مثل هذه الظروف ومعاضدته، ولقد عبّر عن رأيه هذا بشكل كبير أثناء وجوده في الجزائر، ثم أثناء انتقاله إلى المغرب؛ خصوصا عقب هزيمة المغرب أمام الفرنسين في معركة ايسلي سنة 1844، وأمام الاسبان في معركة تطوان سنة 1859، حيث نجده يعيب على العلماء الذين عارضوا الصلح مع الاسبان على غرار السلطان، وأنه ليس من واجبهم الخروج عن طاعته، لأنه نائبا عن الشريعة، فله أن يجتهد وعلى العلماء الامتثال وعدم التعرض لما حكم به الأمير، لأنه أدرى بمصالح المسلمين[2].

7-2-4-إصلاح الجيش: من المعروف أن المغرب عقب هزيمته في معركة ايسلي سنة 1844، بدأت كثير من الأصوات تنادي بضرورة إصلاح الجيش، وهو ما يُسميه المرحوم الأستاذ محمد المنوني[3] بمظاهر يقظة المغرب الحديث[4]، فلم يبق المشرفي مكتوف الأيدي أمام هذه المسألة بل أدلى بدلوه فيها، ومن بين أرائه في هذا الشأن رأيه في الإصلاح العسكري الذي قام به ولي العهد سيدي محمد بإنشائه لجيش نظامي ومما جاء في رأيه هذا: "وأما عساكره التي اخترعها هو ومولانا والده وتحلى بها طوقه وساعده فهي من سائر القبائل، وإحسان سيدنا إلى

1- الحسين الفرقان، المرجع السابق، ص. 110.

2- الحسين الفرقان، المرجع السابق، ص. 111.

3- لقد كان لي شرف زيارة هذا المؤرخ الجليل في بيته المتواضع بمدينة آكدال بالرباط في شهر جوان 1999، أثناء تحضيري لأطروحة الماجستير، فلم يبخل عليّ بتوجيهاته ونصائحه القيّمة، ولقد وقفت منه على تواضع كبير ومعاملة حسنة وكرم مُشرِّف.

4- مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج، 1، ط. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.

إدخالهم في الخدمة آيل، ومن مرن منهم بالخدمة وجرب استعمل وزيد له في المرتب وقرّب، ومن تكاسل عنها يطرد ويبعد، ولا فائدة في العاجز والأشل الأقطع"[1].

7-2-5- ضبط الأمن العام: لقد تميز مغرب القرن 19 بانتشار عدة ظواهر كاللصوصية والفوضى وتدهور الأوضاع الأمنية، ولقد استفحلت هذه الظاهرة بشكل كبير، وإن كان لهذه الظواهر ما يبررها كالفساد الإداري وانتشار القحط والمجاعة والأوبئة[2]، والتدخل الأوربي والثورات والفتن الداخلية، وانتشار ظاهرة تهريب الأسلحة وغيرها؛ فإن المشرفي يكون قد عايش هذه الظروف، وكعادته حاول أن يكون له رأي في مسألة استتاب الأمن، مبرزا أن سبب ذلك يعود إلى حاشية وبطانة الملوك، وأن هؤلاء لا يصدر منهم ما يُشين وإنما سببه يعود إلى تدليس الحكام عليهم والله أعلم[3]، ويحاول أن يُشيد بالتطور الأوربي وخاصة الفرنسي الحاصل في هذا المجال، ويدعو بدوره إلى ضرورة الأخذ بمبادئ النهضة الأوربية، ويركز بالخصوص على نظام العدالة والقضاء. ولذلك يمكن إدراج المشرفي ضمن العلماء المصلحين المجددين.

8- وفاته: توفي أبو حامد العربي المشرفي بمدينة فاس، في حدود سنة 1313هـ/ 1895م[4]، ودفن بها.

9- تراثه المخطوط بالمغرب: إن حياة العربي المشرفي كما مرّ بنا تبدو حياة صعبة جدا، سواء في الجزائر أو في المغرب، ولكننا قد نكاد نندهش لدرجة الذهول؛ لما تركه لنا هذا العالم

1- العربي المشرفي، الحسام المشرفي لقطع لسان الشاب الجعفري الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن الكنسوس، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 2276 ك، ص. 294.

2- يراجع بهذا الخصوص ما جاء في أطروحة محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات، الرباط، 1992.

3- الحسين الفرقان، المرجع السابق، ص. 114.

4- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج. 7، ص. 407، عمار هلال، العلماء الجزائريون في فاس، ص. 41.

الجليل من مؤلفات هائلة في مختلف المجالات، ما تزال جلها مخطوطة في الخزائن المغربية، وفي حدود علمنا أن ما تم تحقيقه منها لحد الآن لا يتعدى مخطوطين[1]، ويمكننا رصد هذه المؤلفات على سبيل المثال لا الحصر حسب مواضيعها الرئيسية في ما يلي:

9-1- التاريخ:

- تقايد على شمائل المصطفى صلى الله عليه وسلم وموضوعه يدور حول السيرة النبوية[2].

- تاريخ الدولة العلوية.

- الحسام المشرفي لقطع لسان الشاب الجعفري الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن أكنسوس[3]، حيث رد فيه على محمد أكنسوس صاحب كتاب الجيش العرمرم، الذي لم يتفق معه حول كثير من القضايا التي تخص الدولة العلوية. توجد نسخة من هذا المخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت 2276ك.

- ذخيرة الأواخر والأول فيما ينتظم من أخبار الدول[4]. ومن بين ما شملته ترجمة لكثير من علماء الجزائر الذين عاصروا المشرفي، ويتحدث فيها أيضا عن الجزائر والمغرب خلال هذه الفترة...الخ[5]، وتتواجد العديد من نسخ هذا المخطوط بالخزائن المغربية؛ منها نسخة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2659ك.

- طرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار في عتو الحاج عبد القادر وأهل دائرته الفجار، لقد تضمّن هذا المخطوط كما هو واضح موقفه من

1- من بين المخطوطات التي تم تحقيقها في حدود علمي، طرس الأخبار وأقوال المطاعين في الطعن والطواعين.

2 -أبو القاسم سعد الله، مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص. 78.

3 -عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط. 2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، 1400هـ/ 1980م، ص. 304.

4- المرجع نفسه، ص. 303.

5- أبو القاسم سعد الله، مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص. 80.

الأمير عبد القادر ومن بعض حاشيته، ويذكر أبو القاسم سعد الله[1] أن محمد بن شنب يكون قد حقق هذا المخطوط ويذكر أنه لم يطلع عليه ككتاب مطبوع، ولقد قمت بالبحث عنه شخصيا فلم يسعفني الحظ في العثور عليه. ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا المخطوط تم تحقيقه في المغرب كدراسة أكاديمية من طرف الباحث يوسف أخليص، بكلية الآداب ابن مسيك، الدار البيضاء، في سنة 2000.

- عجيب الذاهب والجائي في فضيحة الغالي اللجائي[2]، وهو مخطوط رد فيه على الغالي بن محمد العمراني الحسني اللجائي الذي كان يتنطع على الأمير عبد القادر الجزائري بينما كان المشرفي ينتصر له[3].

- ياقوتة النسب الوهاجة في التعريف بسيدي محمد بن علي مولاي بجاجة، وتعرف أيضا باليواقيت الثمينة الوهاجة في التعريف بسيدي محمد بن علي مولاي بجاجة[4]. ويوجد هذا المخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1534، كما أن مكتبة الحامة بالجزائر تتوفر على نسخة من هذا المخطوط تحت رقم 3326. ويتحدث المشرفي في هذا المخطوط عن علي البجاجي والأدارسة، كما ضمّنه أخبارا هامة عن الغرب الجزائري وعلمائه[5].

9-2- الأدب العربي والشعر:

- تقاييد على شرح المكودي، وموضوع هذا العمل هو في علم النحو[6].

1- المرجع نفسه، ص. 83.

2- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق، ص. 304.

3- أبو القاسم سعد الله، مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص. 83.

4- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق، ص. 303.

5- أبو القاسم سعد الله، مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص-ص. 85-86

6- المرجع نفسه، ص78

- مشموم عرار النجد والغيطان المعد لاستنشاق..المولى السلطان[1]، ويعرف أيضا بمشموم عذارى النجد والقيطان[2]، وهو عبارة عن ديوان شعر، تطرق فيه إلى ظروف هجرته بالمغرب، كما تضمّن أيضا كثير من المدح.

- فتح المنان في شرح قصيدة ابن الونان، أو المواهب السنية في شرح الشمشقية الذي أتمه في حدود سنة 1295هـ/ 1877م[3]، وهي قصيدة من نظم أحمد بن محمد الونان التواتي، تحتوي على حوالي 200 بيتا، وهي التي مدح بها الشاعر السلطان محمد بن عبد الله في القرن 12هـ/18م؛ وهو مخطوط بالخزانة الزيدانية بالمغرب تحت رقم 1041[4].

- ديوان نظم في من أيقض للدين جفن الوسن[5].

- ديوان المشرفي، وهو عبارة عن ديوان ضخم تناول فيه عدة جوانب من الشعر، كما ضمّنه الحديث عن جوانب من تاريخ المغرب، وتوجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 204ك[6].

- الفتح والتيسير في شرح قصيدة حوت من هم على قدم البشير النذير، وتوجد نسخة من هذا المخطوط بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 5271.

9-3- الرحلات:

- الرحلة الحسنية إلى شمال المغرب، وهي الرحلة التي رافق فيها السلطان المغربي الحسن الأول سنة 1306هـ إلى نواحي طنجة[7]، والتي نلمس من خلالها مدى الحظوة التي أصبح يحتلها

1- المرجع نفسه، ص. 84.

2- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق، ص. 304.

3- المرجع نفسه، ص. 304.

4- أبو القاسم سعد الله، مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص. 83.

5- الحسين الفرقان، المرجع السابق، هامش ص. 16.

6- أبو القاسم سعد الله، مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص. 80.

7- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 7، ص. 465.

المشرفي عند هذا السلطان، الذي كان يطلب من العلماء والطلبة والشعراء الخروج معه؛ توجد نسخة منها بالمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم 2420.

- رحلته إلى بلاد الجزائر التي قام بها في حدود سنة 1877. حيث كتب وصفا دقيقا لأوضاع الجزائر المستعمرة في مختلف الميادين، إلا أنه تأثر من خلالها بما شاهده من تطور حاصل لها من طرف الفرنسيين حسب رأيه طبعا، ويذكر أبو القاسم سعد الله أن هذه الرحلة فريدة من نوعها، ولم يسبقه غيره إليها ولم تكن معروفة عند الرحالين. وأن المستشرق الفرنسي "رينيه باصيه" هو من اقترح على المشرفي كتابة رحلته من المغرب إلى الجزائر[1]. ويذكر المرحوم عمار هلال أن هذه الرحلة منشورة بالمجلة الإفريقية لمن أراد الرجوع إليها[2].

- الرحلة العريضة في أداء الفريضة، وتسمى أيضا الرحلة العريضة لأداء حج الفريضة[3].

- رحلة القبائل الجبلية وهي منظومة في حوالي مائة بيت[4].

- رحلته إلى نواحي فاس، وهي الرحلة التي انتقل فيها إلى كل من أشراكة-الشراقه- وأولاد جامع وسلاس والجاية وسفيان، كما سبق وأن ذكرنا طلبا للرزق وقوت العيال، ولكنه لم يتحصل منهم على طائل، فألف فيهم قصيدة قد تبدو هجائية تتكون من حوالي 168 بيتا، حكم فيها بأحكام قاسية على هذه القبائل[5].

- الرحلة السوسية وهي المعروفة بنزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار تنفي عن المتكاسل الوسن في مناقب سيدي أحمد بن محمد ووالده السيد الحسن[6]. وهي التي قصد من

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 7، ص. 466.

2- (العلماء الجزائريون في فاس) ، مجلة الدراسات التاريخية، العدد، 9، تصدر عن معهد التاريخ بجامعة الجزائر، 1415هـ/ 1995م، ص. 41.

3- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق، ص. 304.

4- المرجع نفسه، ص. 304.

5- الحسين الفرقان، المرجع السابق، ص. 50.

6- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق، ص-ص. 303-304.

خلالها مراكش إلى السوس حيث زاوية تكدشت، وترجم لصاحب الزاوية أحمد بن محمد التمكدشتي وابنه الحسن سنة 1877، كما سجل مشاهداته في الطريق[1].

9-4- الردود والمهاترات:

- المشرفي الحمزاوي لقطع فؤاد الخبزاوي، وهي عبارة عن رسالة رد فيه المشرفي على أحد معاصريه.

- الرسالة في أهل البصبور الخُثالة، وهي التي عارض فيها الاحتماء بالكفار وقضية الامتيازات الأجنبية قائلا عن الحماية بأنها دخول المسلمين تحت كلمة الكفر، ويعود تأليفها في حدود سنة 1873[2].

- الدُّر المكنون في الرد على العلامة جنون، حيث انتصر فيه لأصحاب الطرق ورد فيه على المخالف ردا شنيع خرج فيه على الحد الشرعي[3].

- الحُسام المشرفي للمهاجر المقتفي.

- تقييد في ذم أهل فاس[4]، لأن المشرفي عندما هاجر نحو هذه المدينة وجد نوعا من التبرم والتنكر من سكانها لشخصه، وخص فيه بالذكر بعض البيوتات الغنية التي شحت عليه في التخفيف من أزمته ومحنته.

9-5- الطب والحكمة:

- أقوال المطاعين في الطعن والطواعين، وهو مخطوط تناول فيه الحديث عن الوباء والطاعون، وللعلم أن هذا المخطوط قد درسه وحققه الأستاذ الحسين الفرقان، ونال به أطروحة الدكتوراه في التاريخ، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط. يوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط تحت رقم 2054.

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 7، ص. 466.

2- أبو القاسم سعد الله، مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر، ص. 82.

3- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق، ص. 304.

4- أبو القاسم سعد الله، مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص. 78.

9-6- الاقتصاد:

- ورقات في رواج السكة بالزيادة[1].

9-7- الكنانيش: لقد ألف المشرفي مجموعة من الكنانيش والكراسات والتي من أهمها:

- كناش المشرفي، يوجد بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 204ك، وهو يضم كثير من الأخبار عن الأدب والتاريخ والشعر، ويبدو أن تاريخ الانتهاء منه كان في حوالي سنة 1261هـ[2].

الخاتمة: من خلال ما سبق يمكن الوصول إلى النتائج الآتية:

- إن أبو حامد العربي المشرفي يُعد من بين العلماء الفاعلين الذين أنجبتهم الجزائر في القرن 19م.

- لقد تمكن المشرفي رغم الظروف القاسية التي مر بها من أن يجمع بين أن يكون مؤرخا وأديبا ونسابة[3] وشاعرا ومصلحا وناقدا. ويبدو ذلك من خلال تراثه الضخم الذي تركه.

- لقد تميزت مواقف المشرفي في كثير من الأحيان بالتذبذب، ومن أمثلة ذلك وقوفه إلى جانب الأمير عبد القادر والدفاع عنه أمام خصومه، ثم سرعان ما ينقلب عليه وعلى أتباعه، وموقفه من الاستعمار الفرنسي الذي تغير على اثر الزيارة التي قام بها إلى الجزائر سنة 1877، وأعتقد أن المشرفي هنا كان متأثرا بأفكار المستشرق "رينيه باصيه" الذي كتب له العديد من الرسائل، ونحن نعرف أن هذا لمستشرق هو من زبانية الاستعمار الفرنسي، وكذلك موقفه من أهل فاس فهو تارة بين الممدح لهم وخاصة أسرة الغسّال الفاسية التي احتضنته أثناء هجرته إلى المغرب، وتارة يسيء الظن ويطعن في كثير من بيوتات فاس العريقة والثرية.

1- المرجع نفسه، ص. 85.

2- المرجع نفسه، ص. 84.

3- عمار هلال، المرجع السابق، ص. 41.

– مساهمته الفعالة في حركة الإصلاح التي عرفها المغرب في النصف الثاني من القرن 19م، وخاصة إصلاح الجيش، انطلاقا من تجربته الخاصة التي عاشها، والمعارك التي خاضها إلى جانب الأمير عبد القادر؛ في الوقت الذي نجده يقف ضد معارضيه وخصوصا ذوي الجاه والسلطان. ولقد كان سيفه في ذلك قلمه ولسانه.

– يمكن أن يُعد العربي المشرفي من كتاب البلاط المقربين للسلاطين والملوك، ولكن رغم ذلك فإن ما جاء في كتاباته يعكس الواقع المغربي والجزائري المعيش آنذاك، حيث كان بعيدا عن الذاتية في كثير من المواقف. عدا ما كتبه عن الفرنسيين على اثر زيارته للجزائر سنة 1877، التي يمكن القول عنه أنه وقع في شباك المستشرقين والسانسيمونيين الفرنسيين الذين أخفوا عنه الوجه الأقبح للفرنسيين بالجزائر.

– مساهمته الفعالة في النهضة الفكرية والعلمية في المغرب، وذلك من خلال تراثه الذي هو الآن مجال بحث ودراسة وتحقيق من طرف بعض الباحثين المغاربة، ورغم جزائريته فإنه لم ينل الحظوة والمكانة التي تليق به، عدا ما كتبه عنه أبو القاسم سعد الله، وما أشار إليه عمار هلال في إحدى مقالاته، ولكن هذا غير كاف مع شخصية مثل العربي المشرفي.

مما تقدم نخلص إلى القول إن دراسة حياة المشرفي تعد تندرج ضمن تاريخ السير والتراجم؛ فهو أحد العلماء الجزائريين المغمورين، في تلك الفترة التاريخية التي كانت تشهد أبشع الممارسات الاستعمارية بالجزائر، الأمر الذي دفع به إلى أن يكون من جملة العلماء الذين هاجروا نحو المغرب الأقصى واستقروا به. إلا أن هذا لم يمنعه من التردد على الجزائر، ومعاصرة الأحداث التي ألمت بها وبالمغرب الشقيق قبل فترة الحماية؛ فلم يبق مكتوفي الأيدي أمام هذه الأحداث بل تعرض لها بالكتابة؛ وهذا ما نلمسه من خلال ما تركه لنا من تراث هائل في مختلف المجالات المعرفية، تُراث لا يزال جُلّه مخطوطا ومحفوظا في خزائن المخطوطات المغربية، وهذا ما سنعرفه في هذا المقال، الذي أتمنى من خلاله أن يُلفت انتباه الباحثين الجزائريين لدراسته وحفظه من الضياع.